

الباب الخامس عشر

رومة العاملة

١٤ - ٩٦ م

الفصل الأول

الزراع

في العصر الفضي ظهر المرجع الروماني الهام في الزراعة وهو كتاب
يونيويس كلوملا Junius Columella المسمى De Re Rustica ومؤلفه
من أصل أسباني فهو من هذه الناحية شبيه بكونتليان ومارتيال وآل سنكا .
وكان يستغل عدة ضياع في إيطاليا ثم اتخذ مسكنه بعدئذ في رومة . ذلك
أنه وجد أن أحسن الأراضي قد شيدت عليها البيوت ذات الحدائق وسويت
لتكون مسارح للأثرياء ، وأن التي تليها في الجودة قد غرست فيها نباتين
الزيتون والكروم ، ولم يبق للزراعة إلا أردأ الأراضي . ومن أقواله في
هذا : « لقد وكلنا حرث أراضينا لأحط العبيد ، وهم يقومون بعملهم
قيام الهمج » . وكان يرى أن أحرار إيطاليا يتدهورون في المدن على حين
أنه كان في مقدورهم أن يقووا أجسامهم وأخلاقهم بالعمل في الأرض ،
« فنحن نعمل في الملاعب ودور التمثيل ولا نعمل بين المزارع والكروم » .
وكان كلوملا يحب الأرض ويحس بأن فلاحها أعود على الناس من
ثقافة المدن ، ويقول في ذلك إن « الزراعة من أخوات الحكمة »
وكان يغري الناس بالعودة إلى الحقول بتجميل موضوعاته بالألفاظ
اللاتينية المصتمولة . وإذا تحدث عن الحدائق والأزهار بلغت حماسته
الشعرية غايتها .

وتلك هي الفترة التي نطق فيها بلنى العالم الطبيعي بقبرية لم يكن موعدها
قد حان : « إن الضياع الكبيرة قد خربت إيطاليا » ، وذلك حكم أصدره
غيره من الكتاب وهم سنكا ، ولوكان ، وپترونيوس ، ومارتيال ،
وجوثنال . فقد وصف سنكا مسارح الأنعام التي كانت أوسع رقعة من
المالك يزرعها عبيد مصفنون في الأغلال . ويقول كالوملا إن بعض
الضياع قد بلغت من السعة حداً يستحيل معه على مالكيها أن يطوفوا حولها
راكبين^(١) . ويحدثنا بلنى عن ضيعة يعمل فيها ٤١١٧ من العبيد ، و ٧٢٠٠
ثور ، و ٢٥٧٠٠٠ من الحيوانات الأخرى^(٢) . نعم إن ما عمله ابنا
جراكس ، وقيصر ، وأغسطس من توزيع الأراضي على الرومان قد زاد
عدد صغار الملاك ، ولكن معظم هؤلاء تركوا أملاكهم في أثناء الحروب
التي قامت بعدئذ وابتاعها الأغنياء ، ولما أن قلت الإدارة الإمبراطورية
من أعمال السلب والنهب في الأقاليم ابتاع الأشراف بأموالهم ضياعاً كبيرة .
وكان سبب انتشار المراعى والضياع الواسعة أن تربية الماشية وزراعة أشجار
الزيتون والكروم كانت أكثر ربحاً من زراعة الحبوب والخصر ، وأن
أصحابها قد تبينوا أن المراعى إذا أريد أن تستغل على خير وجه يجب أن
تكون متسعة المساحة موحدة الإدارة . فلما أشرف القرن الأول بعد
الميلاد على الانتهاء كانت هذه المزايا قد أخذت في الزوال بسبب ما حدث
من الزيادة في تكاليف العبيد ، ومن النقص في إنتاجهم ، ومن ضعف
قدرتهم على الابتكار^(٣) . وقد بدأ في هذه الأثناء الانتقال الطويل الأجل من
استخدام العبيد إلى استخدام أقنان الأرض . وكان سبب ذلك أن السلام
قلل من استرقاق أسرى الحروب ، فعمد بعض ملاك الضياع الواسعة إلى
تقسيمها أقساماً صغيرة لا يستخدمون في فليحها العبيد بل يوجرونها إلى
زراع أحرار يؤدون لهم في نظير ذلك مالا وعملا . وكان معظم « الأراضي
العامة » التي تملكها الحكومة تستغل وقتئذ بهذه الطريقة ، كما كانت
تستغل بها أيضاً الأراضي الواسعة التي يمتلكها بلنى الأصغر الذي يصف

مستأجره بأنهم فلاحون أصحاء ، أقوياء ، طيبو القلوب ، ثرثارون ، وهو وصف ينطبق كل الانطباق على الفلاحين الإيطاليين في هذه الأيام ، فقد بقوا على حالهم رغم ما حل بالبلاد من أحداث وما طرأ عليها من تغيير . وكانت أساليب الزراعة وأدواتها لا تختلف اختلافاً جوهرياً عما كانت عليه منذ قرون ؛ فقد احتفظ المحراث ، والمجرقة ، والمعزقة ، والفأس ، والمذراة ، والمنجل بصورتها التي كانت عليها في تلك الأيام ، ولم تكدر تغيير في شيء . وكانت الحبوب تظحن في طواحين تديرها المياه أو الحيوانات . وكانت المضخات اللولبية والسواقي ترفع الماء من العيون أو الأنهار إلى قنوات الري . وكانوا يحتفظون بنخشب التربة باتباع الدورة الزراعية ، واستخدام المخصبات والنباتات التي تفيده الأرض كالفصفاة والبرسيم والشيلم والبقول^(٤) . وكانوا يتفنون في انتخاب البذور ، وكان في وسعهم بعنايتهم وحنقهم أن يجنوا ثلاثة محاصيل أو أربعة في بعض الأحيان من حقول كميانيا ووادي الو الحصبية الغنية^(٥) . وكان في مقدورهم أن يحصلوا من زرة واحدة من الفصفاة على أربعة محصولات أو ستة في كل عام لمدة عشرة أعوام^(٦) . وكانوا يزرعون كل الحضر الأوربية المعروفة عدا أنهرها ، وكانوا يزرعون بعضها في البيوت الزجاجية ليتجروا فيها أثناء الشتاء . وكانت أشجار الفاكهة والنقل على اختلاف أنواعها كثيرة ، لأن القواد والتجار الإيطاليين ، والتجار الأجانب ، والأرقاء حملوا معهم إلى إيطاليا الكثير من أصنافها ، فجاءوا بأشجار الخوخ من بلاد الفرس ، والمشمش من أرمينية ، والكرز من كراسس في إقليم بنتس (ومنها اشتق اسم هذه الفاكهة) ، والكرم من سوريا ، والبرقوق من دمشق ، والخوخ والبندق من آسية الصغرى ، والجوز من بلاد اليونان ، والزيتون والتين من أفريقية . . . واستطاع المهرة من زراع الأشجار أن يطعموا شجر القطلب (الأريوطس) بأغصان شجر الجوز ، وشجر الدلب بأغصان الخوخ ، وشجر الدر دار بأغصان الكرز . ويذكر بلني تسعة وعشرين نوعاً

من شجر التين كانت تزرع في إيطاليا^(٧) ، ويقول كالوملا : « لقد عرفت إيطاليا بفضل عناية زراعنا كيف تنتج فاكهة العالم كله تقريباً »^(٨) . ثم نقلت هذه الفنون إلى غربي أوروبا وشمالها . وجملة القول أن ألوان الطعام الكثيرة التي نأكلها قد تجمعت من رقعة واسعة من الأرض ، وأن لها من وراثتها تاريخ طويل . وقد يكون هذا الطعام جزءاً من التراث الذي ورثناه من بلاد الشرق أو بلاد اليونان والرومان الأقدمين .

وكانت بساتين الزيتون كثيرة العدد ، أما الكروم فلم يكن يخلو منها مكان ، وكانت تدرج لها سفوح الجبال فتبدو ذات روعة وجمال . وكانت إيطاليا تخرج خمسين نوعاً من أنواع النبيذ المشهورة ، وكانت رومة وحدها تحتسى منها خمسة وعشرين مليون جالون في كل عام ، أي بمعدل نصف جالون لكل شخص من ساكنيها رجالهم ونسائهم وأطفالهم وعبيدهم كل أسبوع . وكان معظم النبيذ من إنتاج المنظمات الرأسمالية - أي بطريقة الإنتاج الكبير الذي تموله رومة^(٩) . وكان الكثير مما تنتجه يصدر إلى خارج البلاد لكي تذوق البلاد التي تشرب الجعة كألمانيا وغالة لذة النبيذ . وشرعت أسبانيا وأفريقية وغالة تزرع كرومها ، وأخذ زراع الكروم الإيطاليون يفقدون من البلاد التي يصدرن إليها نبيذهم أسبوعاً بعد أسبوع ، ويغمرون سوقهم المحلية بأكثر مما تطيقه من النبيذ في إحدى أزمات الإنتاج الوفير التي عانتها رومة في الزمن القديم . وحاول دومتيان أن يخفف من أثر هذه الحال السيئة ، وأن يعيد زراعة الحبوب إلى حالها الأولى ، فحرم غرس كروم جديدة في إيطاليا وأمر بأن تدمر نصف الكروم المزروعة في الولايات^(١٠) . وبأثارت هذه الأوامر عاصفة من الاحتجاج الشديد ، وعجزت الحكومة عن تنفيذها فكانت النتيجة أن نبيذ غالة وزبتون أسبانيا وأفريقية وبلاد الشرق أخذوا يطردون الغلات الإيطالية من أسواق البحر الأبيض المتوسط وبدأ من ذلك الوقت اضمحلال إيطاليا الاقتصادي .

وخصص جزء كبير من أراضي شبه جزيرة إيطاليا للمراعى ، فكانت الأرض غير الموفورة الحصب ، وكان العبيد ذوو الأجور الرخيصة يستخدمان لتربية الماشية والضأن والخنازير ، وكانوا يعنون بتربيتها على الطريقة العلمية . وكانت الخيل تربي في الغالب للأغراض الحربية ، وللصيد وألعاب الفروسية ، وقلنا كانت تستخدم بحر المركبات ؛ وكانت الثيران تجر المحاريث والعربات ، والبغال تحمل الأثقال على ظهورها ؛ وكانت البقر والغنم والماغز تمد الأهلين بثلاثة أنواع من اللبن يصنع منه الإيطاليون وقتئذ كما يصنعون منه في هذه الأيام أصناف اللبن اللذيذ . وكانت الخنازير تربي في الغابات الغنية بالجوز وثمار البلوط . ويقول استرابون إن إيطاليا كانت تعيش في الغالب على لحم الخنازير التي تربي في غابات البلوط الكثيرة في شمالي إيطاليا . وكان الدجاج يمد المزارع بالسماذ المخصب والأسر الإيطالية بالطعام اللذيذ ، كما كان النحل يمد الأهلين بالشهد الذي كان منذ القدم يستعمل بدل السكر . وإذا أضفنا إلى ما سبق بعض مساحات من الكتان والتيل ، وقليلاً من صيد الحيوان ، وكثيراً من صيد السمك ، تكونت لدينا الصورة التي كان عليها الريف الإيطالي منذ ألف وتسعمائة عام والتي لا يزال محتفظاً بها إلى اليوم .

الفصل الثاني

الصناع

م يكن في الحياة الرومانية - ولعله لا يصح أن يكون فيها إذا صلحت الأحوال الاقتصادية - فرق جغرافي بين الزراعة والصناعة مثل ما بينهما من فرق في هذه الأيام . ذلك أن الموطن الريفي القديم - سواء أكان كوخاً أم بيتاً صغيراً ذا حديقة أم بيتاً كبيراً في ضيعة - كان مصنعاً يدوياً بالمعنى الحرفي لهذا اللفظ يعمل فيه الرجال بأيديهم في صناعات هامة متعددة لا غنى لهم عنها ، بينما تملأ النساء البيت وما يجاوره بما لا يحصى من منتجات الفنون والصناعات . فهناك تستحيل الغابات ملاجئاً وتتخذ منها الوقود والأثاث ، وتذبح الماشية وينتفع بجلودها ولحومها ، وتطحن الحبوب وتخبز ، وتعصر الزيوت والحمور ، ويعد الطعام ويحفظ ، وينظف الصوف والتيل وينسجان ، ويحرق الطين في بعض الأحيان وتصنع منه الأنية والآجر والقرميد ، وتطرق المعادن وتصنع منها الأدوات . والحياة في الريف مليئة بالعمل المهذب المثقف المختلف الأنواع الذي لا يستمتع به إلا القليلون منا في عصرنا الحاضر عصر الحركة الواسعة والتخصص الضيق . ولم يكن تعدد الصناعات في المنزل الواحد دليلاً على أن الحال الاقتصادية في الريف فقيرة وبدائية ، فقد كانت أكثر البيوت ثراء أكثرها اعتماداً على نفسها واكتفاء بمنتجاتها ، وكان أهلها يفخرون بأنهم ينتجون معظم ما هم في حاجة إليه . وكانت الأسرة في تلك الأيام منظمة من وحدات اقتصادية متعاونة متحدة الجهود في الأعمال الزراعية والصناعية التي تقوم بها في منزلها . ولما أن تعهد صانع ما بالقيام بعمل لعدة أسبوعه وأقام لنفسه جانوتاً في موضع يسهل على هذه الأسر جميعها أن تصل إليه ، لما قبل هذا أخذ اقتصاد القرية

يكمل ما ينقص من اقتصاد الأسرة ، ولكنه لم يحل محله . مثال ذلك ان الطحان أخذ يحمل الحبوب من عدة حقول ويطحنها لأصحابها ؛ ثم أخذ يعدد يصنع لها الخبز ، وقام آخر الأمر بتوزيعه . وقد عثر في أنقاض عبي على أربعين مخبزاً ، وكان لصناع الفطائر في رومة نقابة خاصة بهم . كذلك كان هناك متعاقدون يشترون محصول الزيتون على شجره ويجمعونه فيما بعد (١١) . على أن معظم الضياع ظلت تجمع زيتونها وتصنع خبزها بنفسها . وكانت ملابس الزراع والفلاسفة تغزل في البيوت ، أما الأثرياء فكانت ثيابهم تغزل في البيوت كملابس الفقراء ولكنها كانت تمشط ، وتنظف ، وتبيض ، وتفصل في أماكن معدة لهذه الأغراض . وكانت بعض المنسوجات الصوفية الرفيعة تنسج في مصانع خاصة ، وكان الكتان الذي تصنع منها أشرعة السفن أو شباك الصيد ينسج في المصانع قماشاً رقيقاً تتخذ منه ملابس للسيدات ومناديل للرجال (١٢) . وكان النسيج في بعض الأحيان يرسل بعدئذ إلى صباغ لا يقتصر عمله على تلوينه بل كان يطبع عليه رسوماً جميلة كالتى نراها مطبوعة على الملابس المصورة على جدران عبي ، وتطورت دباغة الجلود فأصبحت لها مصانع خاصة بها ، وإن بقيت صناعة الأحذية يقوم بها الأفراد فيصنعون منها ما يطلب إليهم صنعه . وكان فيهم إخصائيون لا يصنعون إلا (شباشب) النساء .

وكانت الصناعات التي تستخرج موادها الففل من باطن الأوص يقوم بها كلها تقريباً العبيد والمجرمون ، وكانت مناجم الذهب والفضة في داشيا وغالة وأسبانيا ؛ ومناجم الرصاص والقصدير في أسبانيا وبريطانيا ، ومناجم النحاس في قبرص والبرتغال ، ومناجم الكبريت في صقلية ، والملح في إيطاليا ، والحديد في إلبا ، والرخام في لونا و *Luna* و *Hymettus* و *Paros* ، والحجر السماقي في مصر ، كانت هذه كلها وغيرها من موارد الثروة التي تستخرج من باطن الأرض تمتلكها الدولة وتستغلها بنفسها أو تؤجرها لغيرها ، وكانت مصدراً

هاما من مصادر الإيراد القومي ؛ وحسبنا دليلا على أهميتها أن فسبازيان كان يحصل من مناجم الذهب في أسبانيا وحدها على ما قيمته ٤٤٠٠٠٠٠٠٠٠ دولار في كل عام (١٣) . وكان البحث عن الثروة المعدنية من أهم أسباب الفتوح الاستعمارية ، ومن أقوال تاستس في هذا المعنى أن ثروة بريطانيا المعدنية كانت « جزاء النصر » الذي ظفر به كلوديوس في حروبه (١٤) . وكان الخشب والفحم النباتي أهم أنواع الوقود ، وكان البترول معروفاً في كمبيني Commagene وبابل وبارثيا (١٥) ، وكان المدافعون عن ساموساتا Samosata يلقونه متقدماً في مشاعل على جنود لوكلس ، ولكنتنا لم نغثر على شاهد يدل على أنه كان يستخدم وقوداً على نطاق تجاري (*). وقد عثر على الفحم الحجري في الپلويونيز وفي شمالي إيطاليا ، ولكن أكثر من كانوا يستخدمونه هم الحدادون (١٦) . وكانت صناعة كبريتة الحديد لتحويله إلى فولاذ قد انتشرت من مصر إلى كافة أنحاء الإمبراطورية . وكان معظم صناعات الحديد ، والنحاس والذهب ، والفضة ، يقومون بأعمالهم في مصاهر خاصة يعملون فيها بمساعدة صبي أو صبيين . وفي كاپوا ومنتورني Menturnae وپتيولي Puteoli وأكويليا Aquileia وكومو Como وغيرها من البلاد انضمت عدة أفران ومصاهر وتكونت منها مصانع كبيرة . ويلوح أن مصانع كاپوا كانت مشروعات رأسمالية ذات إنتاج ضخم ، تعتمد على أموال تأتيها من خارجها . وكانت صناعة البناء حسنة التنظيم عظيمة التخصص ، فكان « حاملو الأشجار » Dendrophoroi يقطعون الأشجار ويوردونها ، و« صناعات الخشب » fabri lignarii يصنعون الأثاث ، و« صانعو الأسمنت » Caementarii

(*) كان من بين الأسلحة الحربية في القرن الرابع سهم ناري مملوء بالنفط الملتهب يطلق من قوس أو منجنيق ، ويقول عنه أميانس مرسلينيس Ammianus Marcellinus « إنه يحرق كل ما يقع عليه ، وإذا ألقى عليه ماء زاد ناره حرارة ، وما من سبيل إلى إطفائه إلا إذا رش عليه التراب » .

يخلطونه ، و « المشيدون » Structres يضعون الأساس ، و « القباهون » arcuarü يثبتون العقود ، و « مقيموا الجدران » parietarü يرفعون الحوائط ، و « الطلاسون » يطلونها بالحصص ، والمبيضون albarü يطلونها بالجير ، وصنّاعو الأدوات الصحية Artifices plumbarü يصنعون أدواتها وهي في الغالب أنابيب من الرصاص (plumbum) ، وكان المبلطون marmorü يفرشون الأرض بالرخام ، وفي وسعنا أن نتصور ما تؤدي إليه هذه الأعمال كلها من نزاع . وكان الآجر والقرميد يأتيان من معامل الفخار ، وكان معظمها قد بلغ مرحلة المصانع الكبيرة ، وكان تراچان ، وهدريان ، وماركس أورليوس يمتلكون عدداً منها ويجنون منها أرباحاً طائلة (١٧) . وكانت قرائن أرتيوم Arretium ، وموتينا Mutina ، وبيتولي وسرتم ، وبولنتيا Pollentiae تصنع أدوات الموائد العادية اللازمة لإيطاليا ولجميع الولايات الأوربية والأفريقية . ولم تكن هذه المنتجات الكثيرة ذات صبغة فنية راقية ، بل كان أهم ما يعنى به أصحابها هو كثرة الإنتاج ، ولذلك كانت الأدوات الخزفية التي امتلأت بها أسواق إيطاليا أقل جودة من منتجات أرتيوم السالفة الذكر . وكانت هناك أدوات منقنة ذات الصيت تصنع من الزجاج ، وسندكر شيئاً عنها فيما بعد .

وليس من حتمنا أن نعزو إلى إيطاليا القديمة وجود راسمالية صناعية مستنديين إلى ما نجده فيها من مصانع للزجاج ، والآجر ، والقرميد ، والفخار ، والأدوات المعدنية . ذلك أن رومة نفسها لم يكن فيها إلا مصنعان كبيران أحدهما مصنع للورق والثاني مؤسسة للصبغة (١٨) ، وأكبر الظن أن المعادن والوقود لم يكن من الميسور الحصول عليها بكميات وفيرة ، وأن مكاسب السياسة كانت تبدو لأهل رومة أعظم شرفاً من أرباح الصناعة . أما في مصانع إيطاليا الوسطى فإن الصناع على بكرة أبيهم تقريباً وبعض المشرفين على المصانع كانوا من العبيد ، وفي مصانع شمالي إيطاليا كان عدد غير قليل من الصناع أحراراً ، وكان عدد العبيد

لا يزال كبيراً إلى الحد الذي يحول دون استخدام الآلات . ولم يكن من المنتظر أن يعتمد المهملون المتراحون الذين لا مصلحة لهم في الإنتاج إلى الاختراع والابتكار ، بل إنهم كانوا يرفضون بعض الوسائل التي توفر الجهود العضلي خشية أن تنتشر البطالة بين الصناع ، كما أن قدرة الشعب على الشراء كانت أضعف من أن تمول الإنتاج الكبير بالآلات ، أو تشجع عليه (١٩) . ولسنا ننكر أنه كانت هناك بعض الآلات البسيطة بطبيعة الحال في إيطاليا ومصر والعالم اليوناني : كالمضاغط والمضخات اللولبية ، والآلات الرافعة للمياه ، ومطاحن الحبوب التي تجرها الحيوانات ، وعجلات الغزل ، والأنوال ، والروافع ، وعجلة الفخراي الدوارة ولكن الحياة الإيطالية في الوقت الذي نتحدث عنه (٩٦ م) لم يكن فيها من الحركة الصناعية إلا بقدر ما كان في حياة الناس إلى ما قبل القرن التاسع عشر . ولم يكن مستطاعاً أن تزيد هذه الحياة على هذا القدر ما دامت قائمة على الرقيت وعلى تركيز الثروة أشد التركيز . يضاف إلى هذا أن القانون الروماني لم يكن يشجع المنشآت الكبيرة لأنه كان يتطلب من كل شريك في أي مشروع صناعي أن يكون شريكاً مسئولاً من الوجهة القانونية ، وكان يحرم قيام الشركات ذات « المسئولية المحددة » ، ولا يسمح بقيام الهيئات المساهمة إلا لأداء الأعمال الحكومية . ولما كانت هذه القيود وأمثالها تحد من نشاط المصارف ، فإنها قلما كانت تقدم رؤوس الأموال اللازمة لمشروعات الإنتاج الكبير ، ولم يكن في وسع التطور الصناعي في رومة أو إيطاليا أن يبلغ في وقت من الأوقات ما بلغه في الإسكندرية أو في بلاد الشرق ذات الحضارة اليونانية .

الفصل الثالث

الجمالون

كانت المركبات ذات العجلات محرمة في رومة أثناء النهار من عهد قيصر إلى كومودس ؛ وكان الناس وقتئذ يمشون أو يحملهم العبيد في كراسي أو هودج ، أما المسافات الطويلة فكانوا يقطعونها على ظهور الخيل أو في مركبات تجرها الجياد ، وكان متوسط ما تقطعه المركبات العامة نحو ستين ميلا في اليوم . وقد اجتاز قيصر مرة ثمانمائة ميل في ثمانية أيام ، واجتاز الرسل الذين حملوا إلى جليبا في أسبانيا نبأ وفاة نيرون ٣٣٢ ميلا في ست وثلاثين ساعة ؛ وقطع تيبيريوس في ثلاثة أيام واصل فيها السير راكباً ليلا ونهاراً ستائة ميل ليكون إلى جوار أخيه ساعة وفاته . وكان البريد العام الذي ينقل في العربات أو على ظهور الخيل في ساعات النهار والليل جميعها يسير بسرعة يبلغ متوسطها مائة ميل في اليوم . وكان أغسطس قد أنشأه على غرار نظام البريد الفارسي ، لأنه وجد ألا غنى له عنه في تصريف شئون الإمبراطورية . وكان يطلق عليه لفظ البريد العام لأن مهمته هي خدمة المصلحة العامة بنقل الرسائل الرسمية . أما الأفراد فلم يكونوا يستطيعون الانتفاع به إلا في ظروف قليلة وبتصريح خاص تصدره الحكومة ويسمى دبلوما أي « مطويا مرتين » يبيع لحامله بعض الامتيازات ، ويمكنه من الاتصال في الطريق ببعض أصحاب المقامات الدبلوماسية الكبيرة . وكان ثمة وسيلة أخرى للاتصال أسرع من هذه الوسيلة ، وهي طريقة إرسال الرسائل بمصابيح مرفوعة على أعمدة ترسل إشارات بالضوء من نقطة إلى نقطة ؛ وبهذا البرق البدائي عرفت رومة المضطربة القلقة نبأ وصول السفن التي تحمل الحبوب إلى بمبي . أما الرسائل غير الرسمية فكان ينقلها رسول خاص ، أو ينقلها التجار أو الأصدقاء المسافرون . ولدينا من الشواهد ما يوحى

بوجود شركات خاصة في عهد الإمبراطورية تتكفل بنقل البريد الأفراد . وكانت الرسائل الخاصة في ذلك الوقت أقل من مثيلاتها في هذه الأيام وأحسن منها . على أن نقل الأخبار في غرب أوروبا وجنوبها لم يكن في عهد قيصر أقل سرعة منه في أي وقت من الأوقات قبل مد السكك الحديدية . وشاهد ذلك أن الخطاب الذي أرسله قيصر من بريطانيا إلى شيشرون في عام ٥٤ ق . م وصل إلى رومة في تسعة وعشرين يوماً ، وأن سير ربرت بيل لما سافر مسرعاً من رومة إلى لندن في عام ١٨٣٤ احتاج إلى ثلاثين يوماً (٢٠) .

وكانت الطرق القنصلية من أهم العوامل في تيسير سبل الاتصال والنقل : وكانت هذه الطرق هي الوسائل التي ينفذ بها القانون الروماني ، والأعصاب التي تصبح بها رغبات رومة إرادة الدولة بأجمعها . وقد أحدثت هذه الطرق في العالم القديم انقلاباً تجارياً من نوع الانقلاب الذي أحدثه إنشاء الطرق الحديدية في القرن التاسع عشر . وحسبنا شاهداً على عظمة هذه الطرق أن طرق أوروبا في العصور الوسطى وفي العصور الحديثة ظلت إلى أيام استخدام البخار في النقل أقل شأناً من طرق الإمبراطورية الرومانية في عهد الأنطونيين . لقد كان في إيطاليا وحدها في ذلك الوقت ٣٧٢ طريقاً رئيسياً ، ١٢٠٠٠ ميل من الطرق الكبرى المرصوفة ، وفي الإمبراطورية بأجمعها ٥١,٠٠٠ ميل من الطرق العامة المرصوفة ، فضلاً عن شبكة أخرى من الطرق الثانوية . وكانت الطرق الكبرى تسير فوق جبال الألب إلى ليون ، وبردو ، وباريس وريمس ، وبولوني ، وكانت طرق أخرى تجرى إلى فينا ، ومينز ، وأجزبرج ، وكولوني ، وأوترخت ، وليدن ، وكان ثمة طريق يبدأ من أكويليا محاذياً ساحل البحر الأدرياتي ، ويصل هذه المدينة ، عن طريق إجناشيا بسلانيك Thessalonica . وأقيمت جسور فخمة لتحل محل القوارب التي كانت تنقل الركاب والبضائع في عرض المجارى التي كانت تعطل سبل الاتصال في الزمن القديم . وكانت توضع عند كل ميل في الطرق

المتنصلية. شواهد حجرية تبين المسافة بين كل شاهد والبلدة التي تليه . ولا تزال أربعة آلاف من هذه الشواهد باقية إلى يومنا هذا ؛ ووضعت على مسافات معينة مقاعد يستريح عليها المسافرون المتعبون . وأنشئت بعد كل عشرة أميال محاط يستطيع من شاء أن يستأجر منها خيلاً ، وأقيم بعد كل ثلاثين ميلاً نزل Mansio كان أيضاً مستودعاً للسلع وندوة وماخوراً (٢١) . وكانت نقط الاستراحة الرئيسية هي المدائن التي أنشئت فيها عادة فنادق جميلة تمتلكها وتديرها أحياناً الحكومات البلدية (٢٢) . وكان معظم أصحاب النزل يسرقون أموال النزلاء كلما تيسرت لهم أسباب السرقة ، كما كان غيرهم من اللصوص يجعلون الطرق غير آمنة في أثناء الليل على الرغم من وجود حاميات من الجنود في كل محطة . وكان في استطاعة المسافرين أن يبتاعوا كتباً للإرشاد تبين الطرق والمحاط ، وأطوال ما بينها من المسافات (٢٣) . وكان الأثرياء الذين يستنكفون أن ينزلوا في النزل يحضرون معهم ما يلزمهم من الحاجيات ، ويصطحبون العبيد وينامون في عرباتهم بحراسة رجالهم ، أو في بيوت أصدقائهم ، أو موظفي الحكومة المحليين وأكبر الظن أن الأسفار في عهد نيرون كانت أكثر منها قبل أن تولد نحن رغم ما كان يعترضها من الصعاب . وفي ذلك يقول سنكا : « إن كثيرين من الناس كانوا يركبون البحار مسافات طويلة ليشهدوا منظرأ بعيداً » (٢٤) .

ويحدثنا أفلوطينوس عن الحبابين الذين يقضون خير أيام حياتهم في النزل وفي القوارب (٢٥) . وكان الرومان المتعلمون يهرعون جماعات إلى بلاد اليونان ومصر وآسية اليونانية ، وينتمشون أسماءهم على الآثار التاريخية ، ويرتادون الجواء ومنابع المياه المفيدة للعلاج والصحة ، أو يأتون لمشاهدة المجموعات الفنية في الميائل ، أو يسافرون للدرس على مشهورى الفلاسفة والخطباء والأطباء ؛ وما من شك في أنهم كانوا يسترشدون بپوسنياس كما نسترشد نحن بيدكر (٢٦) . وكانت هذه الرحلات الطويلة تتضمن عادة رحلة بحرية على ظهر سفينة

أو أكثر من السفن التجارية التي تمر عبر باب البحر الأبيض المتوسط ، متتبعه عشرات العشرات من طرق الملاحة التجارية . وقد وصف جوقنال هذه الطرق بقوله : « انظر إلى الموانئ والبحار تجدها غاصة بالسفن وعلى ظهرها من الخلائق أكثر ممن على الأرض » (٢٧) . وكانت الثغور التي تنافس رومة في عظمتها ، وهي بتيولى ، وپورتس ، وأستيا ، تحوى كثيراً من دور الصناعة تبني المراكب (*) وفيها القيارون يجلفطونها والعمال يضعون فيها صابورات من الرمال ، والجمالون يفرغون الحبوب في أكياس ، والوزانون يزنونها ، والملاحون يسرون القوارب الصغيرة بين السفائن الكبرى والبر ، والغواصون يغوصون في البحر لينتشلوا ما يسقط فيه من البضائع . وكانت خمس وعشرين سفينة من سفن الحبوب وحدها تبحر إلى نهر التير في كل يوم من أيام العمل ، فإذا أضفنا إليها ناقلات حجارة البناء والمعادن ، والزيت ، والحمور ، وعشرات المئات من المواد الأخرى تكونت لدينا صورة من النهر الغاص بالمتاجر وما يصحب شحنها وتفريغها من ضجيج الآلات ، ورجال الأهوسة ، والجمالين ، والخازنين ، والتجار ، والسماسة ، والكتبة .

وكانت السفن تسير بالأشعة يساعدها صف أو صفوف من المجاديف ، وكانت في ذلك الوقت أكبر حجماً في العادة من ذي قبل ؛ فأثنيسوس Athenaeus يصف سفينة من ناقلات الحبوب بأنها كانت ٤٢٠ قدماً في الطول و ٥٧ في العرض (٢٩) ، ولكن هذا الحجم كان حجماً شاذاً كل الشذوذ . وكان لبعض السفن ثلاثة أسطح ، وكانت حمولة الكثير منها ٢٥٠ طناً ، وحمولة بعضها ألف طن من البضائع . ويحدثنا يوسفوس عن سفينة تحمل ستائة رجل ما بين راكب وبحار (٣٠) ، وقد حملت سفينة أخرى مسلة مصرية في حجم المسلة المقامة في سنترال بارك Centrel bark بنيويورك ، ومعها ٣٠٠ ملاح ، و ١٣٠٠ راكب ،

(*) في القاموس الجلفاط بالكسر سادٌ دروز السفن الجدد وقد جلفطها . (المترجم)

و٩٣٠٠٠ بشل (*) من القمح ، ومقادير من الكتان ، والفلفل ، والورق ، والزجاج (٣١) . على أن السفر بالسفن بعيداً عن السواحل كان لا يزال معرضاً للأخطار ، كما وجدته القديس بولس في أسفاره . ولم يكن يجرؤ على عبور البحر الأبيض المتوسط فيما بين نوفمبر ومارس إلا عدد قليل من السفن ، وكانت الرياح الموسمية تجعل السفر في وسط الصيف مستحيلاً جهة الشرق . وكانت الأسفار بالليل كثيرة في تلك الأيام ، وكان في كل ميناء ذى شأن منارة صالحة ، وكادت القرصنة أن تختفي من البحر الأبيض المتوسط ، وقد جد أغسطس في القضاء عليها ومنع الطعام عن الولايات التي تثور عليه بوضع أسطولين حربيين كبيرين في رافنا من ثغور البحر الأدرياتي ، وميسينم Misenum على خليج نابلي ، فضلاً عن أساطيل أصغر منها في عشر نقاط أخرى متفرقة في أنحاء الإمبراطورية . وفي وسعنا أن نقدر قول قيصر عن « فخامة السلم الرومانية العظيمة » إذا ذكرنا أننا لم نسمع شيئاً قط عن هذه الأساطيل مدى قرنين كاملين .

ولم تكن مواعيد السفر محددة مضبوطة لأن سير السفن كان يتأثر بعوامل الجو وبالأغراض التجارية . أما الأجور فكانت منخفضة ، فقد كان أجر السفر من أثينة إلى الإسكندرية مثلاً درهمين (أى ١٢٠ ريال أمريكي) ، ولكن المسافرين كانوا يبتاعون طعامهم ، والراجح أن معظمهم كانوا ينامون على سطح المركب . وكانت سرعة السفن معتدلة اعتدال أجورها ، وكانت تختلف باختلاف الرياح ، ويبلغ متوسطها ستة أميال بحرية في الساعة .

وقد لا يستطيع المسافر في بعض الأحيان أن يجتاز البحر الأدرياتي إلا في يوم كامل ، وكان يلزمه أحياناً ثلاثة أسابيع للسفر من پتري Patrae إلى برنديزيوم كما فعل شيشرون . وكان في وسع الطراد السريع أن يقطع

٢٣٠ ميلا بحريا في أربع وعشرين ساعة (٣٢) . وإذا ما صليحت الريح استطاع الإنسان أن يسافر من صقلية إلى الإسكندرية أو من قادس إلى أستيا في ستة أيام ، ومن يوتكا Utica إلى رومة في أربعة (٣٣) .

وكانت أطول الرحلات وأكثرها تعرضاً للخطر الرحلة البحرية التي تستغرق ستة أشهر من عدن في بلاد العرب إلى بلاد الهند ، وذلك لأن الرياح الموسمية كانت تضطر السفن إلى ملازمة السواحل الغاصة بالقراصنة في الطريق كله ؛ وقد استطاع ملاح يوناني من أهل الإسكندرية في وقت ما قبل سنة ٥٠ م ، أن يبين بالرسم أوقات هبوب الرياح الموسمية ، ويعرف أن في مقدوره في بعض الفصول أن يعبر المحيط الهندي في طريق مستقيم وهو آمن . وكان هذا الكشف يعادل في أهميته بالنسبة لهذا البحر أهمية عبور كولبس المحيط الأطلنطي ؛ ذلك أن السفن قد استطاعت بعد هذا العمل أن تسير من الثغور المصرية الواقعة على البحر الأحمر إلى بلاد الهند في أربعين يوماً . وحدث حوالي ٨٠ م أن كتب بحار آخر من أهل الإسكندرية غير معروف اسمه كتاباً عن « الطواف بالبحر الإريترى » . وكان بمثابة دليل للتجار الذين يتجرون بين ثغور ساحل أفريقية الشرقي والهند . وكان غيره من الملاحين في ذلك الوقت قد ساروا في المحيط الأطلنطي إلى بلاد غالة ، وبريطانيا ، وألمانيا ، بل إنهم وصلوا إلى اسكنديناوة وروسيا (٣٤) . ولأسنا نعرف في تاريخ الإنسانية قبل ذلك العهد أن البحر قد حمل من السفن ومن البضائع ومن الخلق ما حمله في تلك الأيام .

الفصل الرابع

المهندسون

كانت السفن والطرق التي تحمل عليها البضائع ، والقناطر التي تربط الطرق بعضها ببعض ، والموانئ والأحواض التي تستقبل السفن ، والقنوات المبنية التي يجري فيها الماء النقي إلى رومة ، والمصارف التي تنصرف فيها مياه المستنقعات الريفية وأقذار المدن ، كانت هذه كلها من عمل المهندسين الرومان واليونان والسوريين يساعدهم آلاف من العمال الأحرار وجنود الفيالق والعبيد . وكانوا يرفعون الأحمال أو الحجارة الثقيلة ، أو يجرونها بوساطة البكرات أو القوائم الخشبية العمودية تديرها الروافع التي يدفعها فيها الحيوانات أو الآدميون^(٣٥) . وقد أقاموا على شاطئ التبر الغدار جدراناً ذات درجات ثلاث حتى لا ينكشف الطين في قاع النهر إذا انخفض ماؤه^(*) وقد أنشئوا ميناء مزدوجاً عند أستيا لكلوديوس ونيرون وترچان ، وافتتحوا موانئ أصغر منها في مرسيليا وپتيولي ، وميسينم ، وقرطاجنة ، وبرنديزيوم ، وراقنا ، وجددوا أعظم موانئ الإمبراطورية كلها في الإسكندرية . وقد جففوا البحيرة الفوسية ، واستصلحوا أرضها للزراعة وذلك بأن شقوا لها نفقاً يخترق جبلاً من الصخر الصلد ، وأنشئوا تحت الأرض في رومة مصارف من الأسمنت المتحجر والآجر والقرميد قاومت البلى مئات السنين ، وجففوا مناطق كپانيا حتى أصبحت صالحة للسكنى ، ويدل ما عثر عليه فيها من آثار على أن قصوراً فخمة كثيرة أقيمت فيها^(**) ، وقاموا بتنفيذ

(*) أنشأت الحكومة الإيطالية في عام ١٨٧٠ جسوراً بمحاذاة شاطئ النهر تجعل مجراه متساوي العرض ، وقد أدى ذلك إلى نتائج غير مستحبة في فصل الجفاف .
(**) والظاهر أن الفلثيين قد جففوا مناطق بنتين قبل عام ٦٠٠ ق . م ، غير أن الرومان الذين فتحوا بلادهم قد أهملوا المصارف فعاد الإقليم مناطق وانتشرت فيه الملاريا . ووضع قيصر مشروفاً لتجفيفه وواصل أغسطس ونيرون العمل في هذا التجفيف ولكن المشروع لم يتم إلا في عام ١٩٣١ .

المشروعات العامة المدهشة التي خفف بها قيصر وغيره من الأباطرة التعطل في البلاد وجملوا بها رومة .

وكانت الطرق القنصلية من أقل أعمالهم مشقة ، ولكنها لم تكن تنقص عن طرق هذه الأيام . وكانت سعتها تختلف من ست عشرة إلى أربع وعشرين قدماً ولكن بعض هذا العرض كان يشغله بالقرب من رومة ممرات جانبية مرصوفة بالواح حجرية مستطيلة الشكل . وكانت تسير مستقيمة إلى أهدافها مضمجة بالنفقات العاجلة في سبيل الاقتصاد الدائم ؛ وأقيمت على المجارى التي لا حصر لها قناطر كثيرة النفقات ، فإذا وصلت إلى المستنقعات اخترقتها فوق قباب مقامة على جدران من الآجر والحجارة ، وكانت تصعد فوق الجبال الوعرة وتنحدر على سفوحها دون أن تستخدم النفق ، وسارت بمحاذاة الجبال أو الجسور العالية تحميها الجدران القوية . وابتدعت المواد التي ترصف بها باختلاف الأماكن التي تمر بها . وكانت الطبقة السفلى تصنع في العادة من الرمل ويتراوح سمكها بين أربع بوصات وست ، أو من الملاط بسمك بوصة واحدة . ثم تقام فوق هذه الطبقة أربع طبقات من البناء : الأولى وسمكها قدم وتبنى من الحجارة يمسكها الأسمنت أو الطين ، تليها طبقة ثانية سمكها عشر بوصات من الأسمنت القوي ، ثم طبقة ثالثة سمكها ما بين اثنتي عشرة وثمان عشرة بوصة وتتألف من عدة طبقات من الأسمنت المقوي أيضاً ، وفوقها الطبقة الرابعة وتتخذ من قطع من حجر الصوان أو اللحم البركانية الكثيرة الأضلاع والتي يختلف قطر كل منها بين قدم واحدة وثلاث أقدام ، وسمكها بين ثمان بوصات واثنتي عشرة بوصة . وكانوا يسوون الوجه الأعلى لهذه القطع ، وكانت مواضع اتصالها بعضها ببعض لا تكاد تتبينها العين . وكانت الطبقة العليا تصنع في بعض الأحيان من الأسمنت المقوي ، وفي الطرق القليلة الأهمية كانت تصنع من الحصباء ؛ وفي بريطانيا كانت من حجر الصوان المخلوط بالأسمنت فوق طبقة من الحصباء . وكان سمك الطبقات السفلى كبيراً إلى حد جعل المهندسين

لا يعنون كثيراً بتصريف الماء الجوفى . ويمكننا أن نقول عن هذه الطرق بوجه عام إنها أطول الطرق أعماراً فى التاريخ كله ، ولا يزال بعضها يستخدم إلى اليوم ، ولكن منحنياتها الشديدة التى صنعت لسير البغال والعربات الصغيرة جعلتها غير صالحة لوسائل النقل الحديث .

وكانت القناطر التى تحمل هذه الطرق نماذج طيبة لتضافر العلم والفن ، ولقد ورث الرومان عن مصر البطليموسية أصول الهندسة المائية ، واستخدموها على نطاق بلغ من السعة حداً لم يسبقهم إليه أحد من قبل ، وبقيت الأساليب التى نقلت عنهم لم يطرأ عليها تغيير إلى هذه الأيام . وقد وضعوا الأسس وأشادوا الأرصفة تحت الماء كما كانت تشاد هذه وتلك فى أقدم العهود . وكانوا يدفعون فى أنواع المجارى اسطوانات مزدوجة مملوءة بمواد البناء ، وقد أحكموا إغلاق كل منهما ونزجوا الماء مما بينهما ، وغطوا الجزء المعرى بالحجارة أو الجير ، وأقاموا الرصيف المطلوب لإقامته على هذا الأساس . وقد أقيمت على نهر التبر قبالة رومة تسعة جسور بعضها قديم مقدس كجسر سبليسيوس الذى لم يكن يجوز استخدام المعادن فيه ، وبعضها كجسر فريسيوس متقن البناء إتقاناً أبقاه صالحاً للاستعمال إلى هذه الأيام . وعن هذه الجسور نقلت العقود الرومانية لتستخدم فى بناء مئات المئات من القناطر فوق المجارى فى العالم الذى يسكنه البيض .

وكان بلنى يظن أن قنوات المياه المبنية أعظم أعمال الرومان ، وفى ذلك يقول : « إذا فكر الإنسان فى مقدار ما يصل إلى المدينة من ماء للأغراض العامة والخاصة التى يخططها الحصر ، وإذا شاهد القنوات المشيدة العالية التى لا بد أن تحتفظ بالعلو والتدرج المطلوبين ، والجبال التى لا بد أن اختراقها ، والمنخفضات التى لا بد من ملئها - لم يسعه إلا أن يحكم أن الأرض كلها ليس فيها ما هو أعجب وأعظم من هذه الأعمال » (٣٨)

وكانت أربع عشرة قناة من هذا النوع يبلغ مجموع أطوالها ١٣٠٠ ميل

وتحرق النفق وتسير فوق عقود فخمة ، كانت هذه القنوات تحمل إلى رومة من عيون بعيدة ما لا يقل عن ٣٠٠٠٠٠٠ ر٣٠٠ جالون من الماء في كل يوم ، ينال منها كل فرد في رومة ما يناله أى إنسان في مدننا الحديثة (٣٩) . على أن هذه المباني الضخمة لم تكن تخلو من عيوب . فقد كانت أنابيب الرصاص تحرق وتتطلب الإصلاح المرة بعد المرة ، وأصبحت هذه القنوات كلها غير صالحة للاستعمال قبل نهاية عهد الإمبراطورية الغربية (*) . ولكننا إذا ذكرنا أنها كانت تحمل إلى المباني ، « والمساكن ، والقصور ، والفساق ، والحدائق ، والبساتين ، والحمامات العامة التي يستحم فيها آلاف الناس مجتمعين ، وأن ما تبقى بعد ذلك من الماء كان يكفي لإنشاء بحيرات صناعية للمعارك الحربية ، إذا ذكرنا هذا كله بدأنا ندرك أن رومة كانت أحسن الحواضر القديمة إدارة ، وأنها كانت من خير المدن المزودة بما تحتاج إليه من الضروريات والكماليات ، رغم ما كان فيها من فساد ، وما كان ينتابها من رعب في كثير من الأحيان .

وكان يشرف على مصلحة المياه في ختام القرن الأول الميلادى سكستس يوليوس فرنتينس الذي جعلته كتبه أشهر مهندسى الرومان الأقدمين . وكال قبل أن يتولى هذا المنصب قد عمل بريتورا ، ووالياً على بريطانيا ، وتولى القنصلية مراراً عدة . وكان كالحكام الإنجليز في هذه الأيام يجد متسعاً من الوقت لتأليف الكتب وحكم الولايات ، فقد نشر كتاباً في العلوم الحربية لا يزال ختامه باقياً إلى هذه الأيام (**) ، وترك لنا وصفاً بقلمه لعملية المياه في رومة (De aquis urbis Romanae) . وهو يصف ما وجدته في تلك المصلحة حين تولى أمورها من ضروب الفساد والرشوة ، وكيف كانت القصور والمواخير تحرق الأنابيب الكبرى

(*) ولا تزال إحداها وهي قناة « فرجو » Virgo تمتد بالماء قوارة تريث Trevi ، وقد أصلحت ثلاث قنوات أخرى وهي تمتد رومة بالماء في هذه الأيام .

(**) ويبدأ الكتاب الثالث بهذه الملاحظة الهامة : « إن اختراع آلات الحرب قد وصل من زمن بعيد إلى أبعاد غاياته ، ولا أمل في أن يتقدم هذا الفن عما هو عليه الآن » .

وتسرف في الماء إسرافاً جعل رومة في بعض الأيام تطلب الماء فلا تجده (٤١) .
ثم يصف ما أدخله بحزمه وهمته من ضروب الإصلاح ، ويفصل القول
في زهو وإعجاب في مبدل كل قناة وطولها والغرض منها ، ويختتم هذا القول
كما يختتم بلنى قوله بهذه العبارة : « منذنا الذي يجروء على أن يوازن هذه
القنوات العظيمة بالأهرام السخيفة أو بأعمال اليونان الذائعة الصيت العديمة
النفع » (٤٢) . ونحن نحس هنا بما يؤمن به هذا الرومانى من مبدل النفعية ،
وبعدم تذوقه للجمال المجرد من النفعية . ولسنا نلومه على هذا ، ونقر بأن
من الواجب أن تحصل المدينة على الماء النقى قبل أن يكون فيها هياكل
جميلة ، ونحن نستشف من خلال هذه الكتب الخالية من التجميل الفنى أنه
كان لا يزال في رومة في أيام الطغاة رومان من الطراز القديم ، رجال
ذو كفاية وصلاح ، وإداريون يعملون بوحى ضمائرهم ، وقد أفلحوا في
نشر الرخاء في أنحاء الإمبراطورية ، تحت حكم الأباطرة السفهاء الفاسدين ،
وكانوا هم الذين مهدوا السبيل لعصر الملكية الذهبى .

الفصل الخامس

التجارة

اتسعت تجارة البحر البيض المتوسط اتساعاً لم يسبق له مثيل من قبل بسبب إصلاح إدارة الحكم ووسائل النقل . ففي أحد طرفي عملية التبادل كان البائعون الجائلون يطوفون بالريف ويبيعون أهلهم كل شيء من عيدان الثقب إلى الحرير المستورد الغالي الثمن . وشبيه هؤلاء من يبيعون البضائع « بالمزاد » ، وكان من عملهم أيضاً المناداة على البضائع المفقودة والعبيد الآبقين . وكانت هناك أسواق يومية وأخرى دورية ، وكنت ترى أصحاب الحوانيت يساومون المشترين ويخسرون الموازين ، ويرقبون في حذر مفتشى الحكومة (الإيديل) الذين كانت مهمتهم مراقبة المكاييل والموازين . وكان أرقى من هؤلاء في السلم التجاري الحوانيت التي تصنع بنفسها سلعتها ؛ وكانت هذه الحوانيت عماد الصناعة والتجارة جميعاً . وكان في الثغور البحرية أو بالقرب منها بائعو الجملة (magnarii) يبيعون لتجار التجزئة أو للمستهلكين البضائع المستوردة حديثاً من خارج البلاد ؛ وكان صاحب السفينة أو رئيس تجارتها في بعض الأحيان يبيع ما فيها من البضائع قبل أن يفرغها .

وظلت إيطاليا ماتي عام وميزان التجارة في غير صالحها ، فقد كانت تشتري أكثر مما تبيع ، وكانت راضية بذلك مغتبطة . كانت تصدر بعض الفخار الأريتيني Arretine وبعض الخمر والزيت ، والأدوات المعدنية والزجاج ، والروائح العطرية من كيانيا ، أما ما عدا هذه من المنتجات فقد كانت تحتفظ به لنفسها وكان لتجار الجملة في هذه الأثناء وكلاء يشترون البضائع لإيطاليا من كافة أنحاء الإمبراطورية ، وكان للتجار الأجانب سماسة يعرضون

بعضائهم في إيطاليا ؛ وبهذه العملية المزدوجة جاءت طبيبات نصف العالم إلى إيطاليا لتتلذذ بها أفواه عظماء الرومان ، وتكتسى بها أجسادهم ، وتزدان بها بيوتهم ؛ وفي ذلك يقول إيليوستيديس Aelius Aristides : « من شاء أن يرى جميع طبيبات العالم فعليه أن يطوف العالم كله أو يقيم في رومة » (٥٥) . وكانت صقلية ترسل لها الحبوب ، والماشية ، والجلود ، والخمور ، والصوف ، والأدوات الخشبية الفنية الجميلة ، والتماثيل ، والحلى ؛ وكانت ترد من شمالي إفريقية الحبوب والزيت ؛ ومن قورينة الأنجدان Silpium (*) ؛ ومن أفريقية الوسطى الوحوش اللازمة للملاعب والمجتمعات ؛ ومن بلاد الحبشة وشرقي أفريقية العاج والقرودة ، وأصداف السلاحف ، والرخام النادر الطبيعي ، والتوابل ، والعبيد الزنوج ؛ ومن غربي أفريقية الزيتون ، والحيوانات البرية ، والأترج ، والخشب ، واللؤلؤ ، والأصباغ ، والنحاس ؛ ومن أسبانيا السمك ، والماشية ؛ والصوف ، والذهب ، والفضة ، والرصاص ، والقصدير ، والنحاس ، والحديد ، والزنجفر ، والقمح ، والتيل ، والفلين ، والخيل ، ولحم الخنزير ونخير أنواع الزيتون وزيته ؛ ومن بلاد غالة الملابس ، والخمور ، والقمح والخشب ، والخضر ، والماشية ، والدجاج ، والفخار ، والجن ؛ ومن بريطانيا القصدير ، والرصاص ، والفضة ، والجلود ، والقمح ، والماشية والعبيد ، والحار ، والكلاب واللؤلؤ ، والمصنوعات الخشبية ؛ وكانت أسراب الإوز تسير من بلجيكا إلى إيطاليا لتأكل أكبادها بطون الأشراف من أبنائها . وكانت ألمانيا تورد الكهرمان ، والعبيد ، والفراء ؛ وبلاد نهر الدانوب تورد القمح ، والماشية ، والحديد ، والفضة ، والذهب ؛ وبلاد اليونان والجزائر اليونانية تصدر الحرير الرخيص ، والتيل ، والخمر ، والزيت ، وعسل النحل ، والخشب ، والرخام ، والزمرد ، والعقاقير ،

(*) نبات من الفصيلة الخيمية ، وهو يحتوي على سائل راتنجي اشهر عند القدماء . ينفعه لكثير من الأمراض الباطنية ، ورسم على نقود قورينة موطنه الأصلي . (المترجم)

والمصنوعات الفنية ، والروائح العطرية ، والماس ، والذهب ؛ وكانت بلاد البحر الأسود تصدر الحبوب ، والسلك ، والفراء ، والجلود ، والعبيد ؛ وآسية الصغرى تصدر المنسوجات التيلية والصوفية ، والجلد المرقق للكتابة ، والخمر ، وتين أزميز وغيرها من البلاد ، والعسل ، والجن ، والمخار ، والسجاجيد ، والزيت ، والتفاح ، والكمثرى ، والبرقوق ، والتين ، والبلح والرمان ، والبندق ، والناردين ، والبلسم (*) ، والصمغ القرمزي (***) ، والأرجواني ، وأرز لبنان ؛ وكانت تدمر تورد المنسوجات والعطور والعقاقير ؛ وبلاد العرب تورد البخور ، والصمغ ، والصبر ، والمر ، والأفيون ، والزنجبيل ، والقرفة ، والأحجار الكريمة ؛ ومصر تورد الحبوب ، والورق ، والتيل ، والزجاج ، والحلى ، والحجر الأعبل ، وأحجار البازلت ، والمرمر ، والبرفير ؛ وكانت آلات الأديرات المصنوعة المختلفة الأنواع ترد إلى رومة وغربي أوربا من الإسكندرية ، وصيدا ، وصور ، وأنطاكية ، وطرسوس ، وروُدس ، وميليتس ، وإفسوس وغيرها من كبريات مدائن الشرق ؛ وكانت بلاد الشرق نفسها تستورد المواد الغفل والنقود من الغرب .

وكانت هناك فضلا عن هذا كله تجارة واردات ضخمة من خارج الإمبراطورية . فكانت ترد إلى إيطاليا من پارثيا وبلاد الفرس الجواهر ، والعطور النادرة ، والجلود الرقيقة ، والطنافس ، والحيوانات البرية ، والخصيان ؛ وكان يرد من الصين بطريق پارثيا أو الهند أو القوقاز الحرير منسوجاً أو غير منسوج ؛ وكان الرومان يظنونهم محصولا نباتياً يستخرج من الشجر ويقومونه بوزنه ذهباً (٤٤) . وكان معظم هذا الحرير يرد إلى جزيرة كوس Cos حيث ينسج ملابس لنساء رومة وغيرها من المدن ؛ واضطرت ولاية مسينيا Messenia - وهي الولاية الفقيرة نسبياً - أن تحرم على نساؤها ارتداء الملابس الحريرية

(*) صمغ راتيني عطري . (الترجم)

(**) صمغ يتخذ من المخار أو الأصداف . (الترجم)

الشفافة في الاجتماعات الدينية ؛ وهذه الملابس هي التي غزت بها كليوباترة قلب قيصر وأنطونيوس^(٤٥) . وكانت الصين تستورد من الإمبراطورية الرومانية في نظير صادراتها إليها الطنافس والحلي ، والكهرمان ، والمعادن ، والأصباغ ، والعقاقير ، والزجاج . ويحدثنا المؤرخون الصينيون عن بعثة تجيء بطريق البحر إلى الإمبراطور هوان دي عام ١٦٦ ، من قبل الإمبراطور « آن - طون » - أي ماركس أورليوس أنطونيوس . وأكبر الظن أن هذه البعثة لم تكن لإجماعة من التجار انتحلوا صفة السفراء . وقد عثر في ولاية شانسي الصينية على ست عشرة قطعة من النقود الرومانية مضروبة فيما بين حكم تيبيريوس وحكم أورليوس ، وكانت الهند تورد إلى إيطاليا الفلفل ، وسنبلة الطيب ، وغيرها من التوابل (التي سافر كولمبس ليجث عنها) ، والأعشاب ، والعاج ، والأبنوس ، ونخشب الصندل والنيلة ، والآلي ، والعقيق المشطب (سردونتس) ، وحجر الظفر (الخرز اليماني) والجمست ، والياقوت الأحمر ، والماس ، والمصنوعات الحديدية ، وأدوات التجنيل ، والمنسوجات ، والنمورة ، والفيلة ، وفي مقدورنا أن ندرك مقدار هذه التجارة وحب الرومان لأسباب الترف إذا عرفنا أن إيطاليا كانت تستورد من الهند أكثر مما تستورد من أي بلد آخر عدا أسبانيا^(٤٦) . ويذكر استرابون أن مائة وعشرين سفينة كانت تبحر كل عام من ثغر واحد من الثغور المصرية إلى الهند وسيلان^(٤٧) . وكانت الهند نفسها تستورد في مقابل صادراتها مقداراً غير كبير من الخمور ، والمعادن ، والصنعة الأرجوانية ، وتأخذ ثمن ما بقي من بضائعها أكثر من مائة مليون سترس تقوداً أو مباتك . وكان مثل هذا القدر من المال يرسل إلى بلاد العرب والصين ، ولعل مثله أيضاً كان يرسل إلى أسبانيا .

وظلت هذه التجارة الواسعة مصدر رخاء عظيم مائتي عام ، ولكن أساسها غير السليم جر الخراب على الاقتصاد الروماني في آخر الأمر . ذلك أن إيطاليا لم تحاول قط أن تتعادل صادراتها ووارداتها ، وأنها استولت على مناجم نحسين

ولاية أو نحوها ، وفرضت على أهلها الضرائب لتستمد منها المال الذى تدفعه لموازنة صادراتها ب وارداتها . فلما أن استنفدت العروق المعدنية الغنية ولم تنقص شهوة الرومان للترف والكاليات ، حاولت رومة أن تؤجل انهيار نظام الاستيراد بفتح بلاد جديدة اشتهرت بمعادنها مثل داشيا Dacia ، وبتخفيض قيمة نقدها الذى كان من قبل أبعد النقود عن الفساد والانحطاط ، فصارت تصنع أكثر ما تستطيع صنعه من النقود من أقل ما لديها من السبائك : ولما أن اقربت نفقات الإدارة والحروب من مكاسب الإمبراطورية ، كان على رومة أن تؤدى ثمن ما تستورده من البضائع بضائع أخرى ، ولكنها عجزت عن هذا . وكان اعتماد إيطاليا على ما تستورده من الطعام أهم أسباب ضعفها . ذلك أنها ساءة أن عجزت عن إرغام غيرها من البلاد على أن ترسل إليها الطعام والجنود ، آذن مجدها بالزوال وفى هذا الوقت عينه أخذت الولايات تسترد رخاءها وأولويتها الاقتصادية : فكاد التجار الإيطاليون فى القرن الأول الميلادى ينجفون من الثغور الشرقية ، واستقر التجار السوريون واليونان فى ديلوس وبتيولى ، وتضاعف عددهم فى أسبانيا وغالة ، وأخذ الشرق بين مد التاريخ وجزره المتباعدي الأجل يستعد لأن يسيطر مرة أخرى على الغرب .

الفصل السادس

رجال المال

ترى كيف كان الإنتاج والتجارة يمولان ؟ لقد كانا يمولان قبل كل شيء .
بنقد محترم موثوق به في العالم إلى حد كبير . نعم إن النقود الرومانية جميعها
قد انحطت قيمتها شيئاً فشيئاً من أيام الحرب البونية الأولى ، لأن الخزائن
وجدت أنه سهل عليها أن تؤدي ما استدانته الحكومة من المال بسبب
الحروب بسماحها بالتضخم الذي ينشأ بطبيعته من ازدياد النقود ونقص السلع .
من ذلك أن الآس وكان في الأصل رطلاً من النحاس انخفض وزنه إلى
أوقيتين في عام ٢٤١ ، وإلى أوقية واحدة في عام ٢٠٢ ، وإلى نصف
أوقية في عام ٨٧ ق . م ، وإلى ربع أوقية في عام ٦٠ م ؛ وفي المائة العام
الأخيرة من عهد الجمهورية كان قواد الجند يسكون نقودهم ، وكانت
هذه النقود في العادة هي الأوري وهو نقد ذهبي كانت قيمته في الغالب
مائة سسترس . ومن هذه النقود الحربية جاءت نقود الأباطرة ، وقد جرى
هؤلاء على سنة قبصر فطبعوا صورتهم على ما يسكونه من النقود رمزاً
لضمان الحكومة إياها . وسك السسترس وقتئذ من النحاس بدل الفضة ،
وجعلت قيمته أربعة آسات (*) ، وأنقص نيرون ما كان يحتويه الدينار من
الفضة إلى ٩٠ ٪ مما كان يحتويه منها قبل ، ثم أنقصه تراجان إلى ٨٥ ٪ ،
وأورليوس إلى ٧٥ ٪ ، وكودس إلى ٧٠ ٪ وسپتيميوس سڤيرس Septimius

(*) منقوم العملة الرومانية حين نشير إلى العهد الذي أعقب حكم نيرون بثلاثي قيمتها
المعتادة في زمن الإمبراطورية ، فيقوم الآس بـ $\frac{25}{100}$ من الريال الأمريكي ، والسسترس
بـ $\frac{1}{100}$ منه ، والدينار بـ $\frac{1}{200}$ ، والثالث بـ ٢٠٤٠٠ حسب قيمة الريال الأمريكي في عام
١٩٤٢ . وإذا كنا سننقل في هذا التقويم ما طرأ على العملة الرومانية من اختلافات قليلة ،
تجدير بالقارئ أن يذكر أن هذا التقويم كله تقريبي .

Severus إلى ٥٠٪ . وأنقص نيرون قيمة الأوريوس من $\frac{1}{3}$ من الرطل من الذهب إلى $\frac{1}{4}$ ، وأنقصها كركلا إلى $\frac{1}{5}$. وصحب هذا التخفيض ارتفاع عام في أثمان السلع ، ولكن يلوح أن الدخل ارتفع بنسبة هذا التخفيض وظل يرتفع حتى زمن أورليوس . ولعل هذا التضخم غير الطليق الخاضع لإشراف الحكومة ، لم يكن إلا وسيلة سهلة لتخفيف العبء عن المدنيين على حساب الدائنين ، لأن هؤلاء لو تركوا وشأنهم لاستطاعوا بفضل ما يمتازون به من كفاية ، وما يتاح لهم من فرص ، أن يركزوا الثروة في أيدي قليلة إلى حد يقف معه دولاب الاقتصاد وينذر بالثورة السياسية .

ومن واجبنا أن نعد النظام المالي الروماني من أكثر النظم المالية نجاحاً وثباتاً في التاريخ رغم ما طرأ عليه من تغيرات . ذلك أن معياراً واحداً للنقد ظل قائماً موثوقاً به مدى قرنين من الزمان ، وبفضل هذا الثبات راجت التجارة واستثمار المال رواجاً لم يكن له نظير في أي عصر من العصور السابقة .

ومن أجل هذا انتشر الصيرافة في كل مكان ، يبدلون النقود بعضها ببعض ، ويراجعون الحسابات والودائع ذات الفوائد ، ويصدرون التحاويل المالية للمسافرين وتوكل إليهم إدارة أملاك الأفراد وبيعها ، وشراؤها ، واستثمار الأموال ، وأداء الديون ، وإقراض المال للأفراد والشركات . وكان مصدر هذا النظام المصرفي بلاد اليونان وبلاد الشرق اليوناني ، وكان أكثره في أيدي اليونان والسوريين حتى في إيطاليا نفسها وفي غربي أوروبا ، وكان اللفظان اللذان يطلقان على السورى ، والمصرفي في غالة مترادفين (٤٩) .

وانخفض سعر الفائدة إلى أربعة في المائة لكثرة الغنائم التي جاءها أغسطس من مصر ، ولكنه عاد فارتفع إلى ٦٪ بعد موته ، وبلغ حده القانوني الأقصى وهو ١٢٪ قبيل عصر قسطنطين .

ويدل « الذعر » المشهور الذي حدث في عام ٣٣ م على ما وصلت إليه حال المصارف والتجارة في أيام الإمبراطورية ، كما يدل على اعتماد كلا النظامين على الآخر . ذلك أن أغسطس سك العملة بلا حساب ، وبسط يده في الإنفاق

هو مصرف أولاد پتيوس Pettius . ووصلت في الوقت عينه تقريباً أبناء
تقول إن مصارف مالية كبرى في ليون ، وقرطاجنة ، وكورنثة ،
وبيزنطية قد أفلست هي الأخرى ، وأغلقت مصارف رومة واحداً بعد
واحد ، ولم يكن من المستطاع اقتراض المال إلا بفوائد أعلى كثيراً من
السعر المصرح به قانوناً ؛ واضطر تيبيريوس في آخر الأمر أن يعالج الأزمة
بوقف قانون الاستثمار في أرض إيطاليا ، وتوزيع ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠
سنترس على المصارف لتقرضها من غير فائدة لآجال تبلغ ثلاث سنين ،
بضمان الأملاك العقارية ، فاضطر المرابون من الأفراد إلى تخفيض سعر
الفائدة ، وخرجت الأموال من مخابئها ، وعادت الثقة شيئاً فشيئاً إلى السوق
المالية والتجارية (٥٠) .

الفصل السابع

الطبقات

كان كل إنسان في رومة إلا أقلية لا يعتد بها يعبد المال عبادة جنونية ، وكان الناس جميعاً عدا أصحاب المصارف يلعنون المال ويذمونهم : من ذلك أن أوغد يقول في أحد كتبه على لسان إله من الآلهة : « ما أقل ما تعرف عن العصر الذي تعيش فيه إذا توهمت أن الشهد أحلى من المال في يدك » (٥١) . وبعد مائة عام من ذلك الوقت يشيد جوفنال في سخرية : « بجلال الثروة المقدس أعظم التقديس » ، وظل القانون الروماني إلى آخر عهد الإمبراطورية يحرم على الشيوخ استثمار أموالهم في التجارة أو الصناعة ؛ ومع أنهم كانوا يجتالون على هذا التحريم بأن يجيزوا لمعتوقهم أن يستثمروا لهم المال ، فإنهم كانوا يحتقرون وكلاءهم ، ويرون أن الحكم بحق المولد هو وحده الذي يليق بهم أن يستبدلوا به الحكم بحق المال أو الأساطير أو السيف . وقد ظلت الانقسامات الطائفية باقية في البلاد بعد ما قام فيها من الثورات ، وبعد أن نقص عدد الأشراف نقصاناً كبيراً ، واتخذوا لهم ألقاباً جديدة : فأصبح أفراد طبقتي الشيوخ ، والفرسان ، والحكام ، والموظفين ، يلقبون « رجال الشرف » honestiores أو رجال المناصب ؛ ولقب كل من عداهم « بالأدنياء » humiliores أو الضعفاء » tenuiores وكان وقار الشيخ وزهوه يمتزج بهما اعتزاز بالشرف والكرامة ، وكان يعمل في عدد من المناصب بعضها في إثر بعض من غير أجر بل تفرض عليه نفقات طائلة ، وكان يضطلع بالواجبات التي تفرضها عليه مناصبه الهامة بدرجة لا بأس بها من الكفاية والاستقامة ؛ وينفق من ماله على الألعاب العامة ، ويساعد الموالى والمحربين من العبيد ، ويقسم بعض ثروته مع الأهلين بضروب الصدقات التي يخرجها في أثناء حياته أو بعد

مئاته . وإذا كان مركزه يتطلب منه كثيراً من الواجبات ، كان يطلب إليه إذا أراد أن ينضم إلى طبقة الشيوخ أو يبقى فيها أن يكون لديه مليون سترس .

وقد بلغت ثروة أحد الشيوخ وهو نيوس لنتولس *Gnaeus Lentulus* ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سترس ، ولكننا إذا استثنينا هذا الشيخ وحده كان أعظم الناس ثراء في رومة هم رجال الأعمال الذين لم يكونوا يستنكفون أن يشتغلوا بالشئون المالية أو التجارية . وبيننا كان الأباطرة ينقصون من سلطان مجلس الشيوخ كانوا يختصون رجال الأعمال بالمناصب الكبرى ، ويحمون الصناعة والتجارة والأعمال المالية ، واتخذوا معونة الفرسان سنداً للزعامة ضد دسائس الأشراف . وكانت عضوية هذه الطبقة الثانية ، طبقة الفرسان ، تتطلب من صاحبها أن يكون مالكا لأربعمئة ألف سترس ، وأن يرشح الزعيم نفسه أعضاء هذه الطبقة ؛ ومن أجل هذا كان كثيرون من ذوى الثراء من طبقة العامة .

وكانت هذه الطبقة وقتئذ تتألف من رجال الأعمال الذين لم يرشحوا إلى العضوية في طبقة أخرى ، ومن العمال الأحرار المولد ، والفلاحين الملاك ، والمدرسين ، والأطباء ، والفنانين والعبيد المحررين . ولم يكن الإحصاء يحدد طبقة الصعاليك حسب أعمال أفرادها بل كان يحددها حسب مولدهم ؛ وقد وصفتهم إحدى الرسائل القديمة بأنهم « السوقة الذين لا يقدمون للدولة إلا الأطفال » (٥٢) وكان الكثيرون منهم يعملون في الحوانيت ، وفي المصانع ، وفي تجارة المدن بأجر يبلغ متوسطه ديناراً (٦٠ من الريال الأمريكى) في اليوم . وزاد هذا الأجر في القرون التالية ، ولكن زيادته لم تكن أسرع من زيادة الأثمان (٥٣) . وجدير بنا ألا ننسى أن استغلال الأقوياء للضعفاء أمر طبيعي كالطعام والشراب ، ولا يختلف عنهما إلا في السرعة ؛ وأنه لا يخلو منه عصر من العصور ولا مجتمع من المجتمعات أيا كان نوعه وأيا كان نظام الحكم الذى يخضع له ؛ ولكن هذا

الاستغلال لم يكن في بلد من البلاد أكمل مما كان في رومة القديمة ، كما لم تكن الطبقات في بلد آخر أقل تعاطفاً من الطبقات فيها . لقد كان ساكنوها جميعاً في وقت من الأوقات فقراء لا يشعرون بفقرهم ؛ ولكن الفقر والثراء ما لبثا أن وجدا معا في صعيد واحد ، ف شعر الفقراء وقتئذ بفقرهم . على أن نظام الإعانات الحكومية والصدقات التي كان السادة يحسنون بها على مواليهم ، والوصايا القيمة التي كان يوصى بها الأثرياء أمثال بلبس الذي أوصى لكل ساكن في رومة بخمسة وعشرين ديناراً ، كل هذا قد حال بين الأهلين وبين الفقر المدقع . وكاد نظام الطبقات في رومة أن يصبح شبيهاً بنظيره في الهند الحاضرة فيقسم الأمة أقساماً منفصلة متنافرة ، ولكن من كان ذا قدرة من الأهلين كان في وسعه أن يتحرر من الرق ، وأن يجمع المال ، ويرقى إلى المناصب العالية في خدمة الزعيم . وكان ابن العبد المحرر يتمتع بجميع حقوق الأحرار ، وكان في وسع حفيده أن يصبح عضواً في مجلس الشيوخ ، بل إن حفيد أحد المحررين قد أصبح إمبراطوراً بعد قليل من هذا الوقت الذي نتحدث عنه .

وتولى العبيد المحررون في القرن الأول الميلادي كثيراً من المناصب العامة . وكثيراً ما كان يعهد إليهم الإشراف على أموال الإمبراطورية في الولايات ، وعلى عمليات المياه في رومة ، وعلى مناجم الإمبراطور ، ومقالع أحجاره وضياعه ، وعلى تموين معسكرات الجيش . وكان المحررون أو العبيد ، وكلهم تقريباً من اليونان أو السوريين ، يديرون شئون القصور الإمبراطورية ، ويتولون أخطر المناصب في مجالس الدولة . وتحولت الصناعات والتجارة الصغرى شيئاً فشيئاً إلى أيدي المحررين ، وأصبح الكثيرون منهم على مر الأيام من أصحاب رؤوس الأموال وملاك الأراضي ؛ وقبلها كان ماضيهم يتيح لهم الفرص لرفع مستواهم الخلقى أو يسمو بأغراضهم وأسباب اهتمامهم ، فلما أن تحرروا أصبح المال شغلهم الشاغل فلم يكونوا يتورعون عن سلوك أي سبيل توصلهم إليه ، أو يراعون في إنفاقه وازعاً

(١٧ - ج ٢ - مجلد ٣)

من ضمير أو ذوق سليم . وقد ندد بهم پترونيوس Petronius أشنع تنديد .
في تريمليكيو ، وسخر سنكا ، وإن يكن أقل من پترونيوس حدة ، بالأثرياء
المحدثين الذين يبتاعون مجاميع مزينة من الكتب ولكنهم لا يقرأونها أبداً (٥٤) .
وأكبر الظن أن بعض هذا الهجاء كان رد فعل مبعثه غيرة طبقة من الناس
رأت أن ما كانت تختص به من استغلال الناس والاستمتاع بضروب الترف
والملاذ قد أخذ يعتدى عليه هؤلاء المحدثون ، ولم يكن في وسعها أن تصفح
عن أولئك الذين قاموا يشاركونها في أموالها وسلطانها .

وما من شك في أن ما لقيه المحررون من نجاح قد بعث بعض السلوى
والأمل في نفوس تلك الطبقة التي كانت تقوم بمعظم الأعمال اليدوية في
إيطاليا . وقد قدر بلوك Peloch عدد العبيد في رومة حوالي سنة ٣٠ ق . م
بما يقرب من ٤٠٠,٠٠٠ أي نحو نصف عدد سكانها جميعاً ، وقدر عددهم
في إيطاليا بنحو ١,٥٠٠,٠٠٠ . وإذا جاز لنا أن نصدق ثرثرة أثنيوس فإن
بعض الرومان كان يمتلك الواحد منهم ٢٠,٠٠٠ عبد (٥٥) . ومن أكبر
الشواهد على كثرتهم أن مجلس الشيوخ قد رفض اقتراحاً عرض عليه يرمى
إلى إلزام العبيد بأن يلبسوا زياً خاصاً ، وكان سبب الرفض خوف المجلس
أن يدركوا بذلك كثرة عددهم (٥٦) . وقدر جالينوس نسبة العبيد إلى الأحرار
في برجموم Pergamum حوالي سنة ١٧٠ م بواحد إلى ثلاثة أي ٢٥٪ ،
وأكبر الظن أن نسبتهم في المدن الأخرى لم تكن تختلف كثيراً عن هذه
النسبة (٥٦) . وكان ثمن العبد يختلف من ٣٣٠ سترس يبتاع بها من يعمل
في الضياع ، إلى السبعائة ألف (١٠٥,٠٠٠ ريال أمريكي) التي ابتاع بها
ماركس أسكورس Marcus Scaurus دفينيس Daphnis النحوى (٥٧) .
وكان متوسط ثمن العبد في الوقت الذي نتحدث عنه ٤٠٠٠ سترس (٤٠٠
ريال) ، وكان ثمانون في المائة من العمال في الصناعة وفي تجارة الأشتات
من العبيد ، كما كانت معظم الأعمال اليدوية والكتابية في المصالح

الحكومية يؤديها « عبيد عموميون » *servi publici* . أما عبيد المنازل فكانوا أنواعاً لا حصر لها ، كما كانت مراكزهم وأعمالهم كثيرة متنوعة : كانوا يقومون بخدمة ساداتهم ، وكانوا صناعاً يدويين ، ومعلمين خصوصيين ، وطهاة ، وحلاقين ، وموسيقيين ، ونساخين وأمناء مكاتب ، وفنانين ، وأطباء ، وفلاسفة وخصيائناً . وغلماناً حساناً أقل ما يقومون به من الأعمال أن يكونوا سقاة ، ومقعدلين يسلون ساداتهم بأجسامهم المشوهة . وكانت في رومة سوق خاصة يستطيع الإنسان أن يبتاع فيها عبداً أعرج ، وأقطع الذراع ، أو ذا أعين ثلاث ، أو طويلاً مفرطاً في الطول ؛ أو قرماً أو خنثى (٥٨) . وكان عبيد المنازل يضربون أحياناً وأحياناً يقتلون ؛ وقد قتل والد نيرون عبيده المحررين لأنهم أبوا أن يشربوا من الخمر القدر الذي يرغب فيه (٥٩) . ويصف سنكا في فقرة له غاضبة « العذراء الخشبية وغيرها من آلات التعذيب ؛ والحب وغيره من السجون ؛ والنيران التي كانت توقد في الحفر حول أجسام المساجين ؛ والحطاطيف التي كانت نجر بها جثثهم ؛ والأغلال الكثيرة الأنواع ، وضروب العقاب المختلفة ؛ وأقتلاع الأعضاء وكى الجباه » (٦٠) . ويلوح أن هذه كلها كان يلقاها عبيد المزارع . ويصف چوثنال سيدة كان عبيدها يضربون واحداً بعد واحد أثناء تصفيف شعرها (٦٠) ، ويصور أوقد سيدة أخرى تدفع دبابيس الشعر في ذراعي خادمة لها (٦١) ؛ ولكن هذه القصص يبدو عليها أنها من اختراع الأدباء ، ومن واجبنا ألا نعدّها من الحقائق التاريخية المقطوع بصحتها ،

ونحن معرضون لخطأ المبالغة في قسوة الماضي لنفس السبب الذي يحملنا على المبالغة في جرائم الحاضر وفساد أخلاقه - ذلك بأن ندرة القسوة تجعلها طريفة مستملحة ؛ والحق أن متاعب عبيد البيوت أيام الإمبراطورية قد أخذت تقل شيئاً فشيئاً على أثر قبولهم أعضاء في الأسر التي كانوا يخدمونها ، وبالإخلاص المتبادل بينهم وبين ساداتهم ، وبالعادة الطريفة عادة أن يقوم

السيد بخدمة عبيده في بعض الأعياد ، وبما كان يضمه العبد من عمل دائم في خدمة سيده قل أن يكون له نظير في هذه الأيام . ولم يكن العبيد يحرمون من مسرات الحياة العائلية ؛ وتدل شواهد قبورهم على أنهم لم يكونوا يقلون رحمة وشفقة عن الأحرار . انظر مثلاً إلى ما كتب على قبر واحد من أبنائهم : « لقد أقام والدا يوكوبيون Eucopion هذا الأثر لابنهما الذي عاش ستة أشهر وثلاثة أيام ؛ كان فيها أظرف الأطفال وأكثرهم إدخالاً للسرور على قلوب من حولهم ؛ ولقد كان أكبر أسباب سعادتنا وإن لم يكن قادراً على الكلام » (٦٢) . وثمة شواهد أخرى تدل على ما كان بين السادة والعبيد من حب وعطف . من ذلك أن أحد الأسياد يجهر بأن خادمه الميتم كان عزيزاً عليه كولده ، وأن أحد الشبان النبلاء يبدي حزنه الشديد على موت مربيته ، وأن مربية أخرى تظهر حزنها لموت طفل ترعاه ، وأن سيدة متعلمة أقامت نصباً تذكاريًا جميلاً لأمين مكتبتها (٦٣) . وقد كتب استاتيوس Staius « قصيدة إلى فلافيوس أورسس Flavius Ursus يعزیه في موت عبد عزيز عليه » (٦٤) . ولم يكن من غير المعتاد أن يخاطر عبد بحياته لحماية سيده ؛ ومنهم كثيرون صاحبوا ساداتهم في مفاهم طائعين مختارين ، ومنهم من ضحوا بحياتهم من أجل ساداتهم . ومن النساء من حررن عبيدهن وتزوجنهم ، ومن الرجال من كانوا يعاملونهم معاملة الأصدقاء ، وكان سنكا يأكل معهم (٦٥) . وقد كان للأخلاق الرقيقة ، والحس المرهف ، وعدم وجود فارق في اللون بين السيد والعبد ، ولبادئ الفلسفة الرواقية ، وللعقائد الدينية التي جاءت من بلاد الشرق والتي لم تكن تعرف الفروق بين الطبقات ، كان لهذه كلها نصيب في تقليل الرق وتحسين حال الأرقاء ؛ ولكن العوامل الأساسية في هذه القلة وذلك التحسين كانت هي المزايا الاقتصادية التي تعود على السيد ، وارتفاع ثمن العبيد . وكان كثيرون من العبيد ينالون احترام ساداتهم لثقافتهم الرواقية ، فقد كان منهم مختزلون لخطبهم ، ومساعدون لهم في بحوثهم ، وأمناء لهم في شئونهم المالية ،

ومدبرون لأعمالهم ، وكان منهم فنانون ، وأطباء ، ونحاة ، وفلاسفة .
وكان في مقدور العبد في كثير من الأحوال أن يتجر لحسابه الخاص ، وأن
يعطى جزءاً من مكاسبه للملكه ، وأن يحتفظ بما بقي منها لتكون « ماله
القليل Peculium » ، أى ملكاً خالصاً له . وكان في وسع العبد بهته
المكاسب ، أو بأمانته وإخلاصه في خدمة سيده ، أو بالقيام له بخدمة
غير عادية ، أو بجمال خلقه ، أن ينال حرية عادة في ست سنين (٦٦) .
وقد تحسنت أحوال العمال وأحوال العبيد أنفسهم بعض التحسن بفضل
منظمات العمال Collegia ونحن نسمع قبيل هذا الوقت الذى نتحدث عنه
بوجود عدد كبير من هذه المنظمات وبثخصصها إلى حد يدعو إلى الفخر ،
فكانت هناك هيئات خاصة بالمداحين ، والنافخين في الأبواق ، والقرون ،
والنأى والمزمار ، وغيرها من الآلات ، وكانت هذه المنظمات تنشأ عادة على
مثال الهيئات البلدية ، فكان يقوم عليها عدد من الرؤساء ذوى الرتب المتدرجة ؛
وكان لها إله واحد أو آلهة متعددون تقيم له أولهم معبداً وعيداً سنوياً . وكانت
تعمل ما تعمله المدن فتطلب إلى ذوى المال أو ذواته رعايتها ، والأخذ
بناصرها ، ومساعدة أعضائها في رحلاتهم ، وإقامة قاعات اجتماعهم ومعابدهم .
وكانوا يجدون هذه المساعدة على الدوام . ونحن نخطئ إذا ظننا أن هذه
المنظمات كانت شبيهة باتحادات العمال في هذه الأيام . وخير ما نصورها به
هو أن نقول إنها كانت أشبه بالهيئات الأخوية ، ذات العدد الذى لا يحصى
من المناصب ، وألقاب الشرف ، وضروب اللهو ، والرحلات ، والمعاونات
المتبادلة البسيطة . وكثيراً ما كان الأغنياء يساعدون على قيام هذه المنظمات
ولا ينسونها في وصاياهم . وكان رجال المنظمة كلهم « إخوة » كما كان
نساؤها « أخوات » . وكان في مقدور العبد في بعضها أن يجلس أمام مائدة
الطعام ، أو في مجلس إدارتها ، مع الرجل الحر . وكان كل « عضو ذى
مقام » يضمن لنفسه جنازة طيبة .

وقد وجد الزعماء الشعبيون على اختلاف طبقاتهم في آخر قرن من حياة الجمهورية أن في وسعهم أن يقنعوا هذه المنظمات بأن يقترح أفرادها على بكرة أبيهم للمرشح الذي يقدم لها المال . وبهذه الطريقة أصبحت أدوات سياسية في أيدي الأشراف ، وأصحاب المال ، والمتطرفين من السياسيين ، وكان لتنافسها في الفساد أكبر الأثر في القضاء على الديمقراطية الرومانية . وقد حرم قيصر وجودها ولكنها بقيت رغم هذا التحريم ، وحلها أغسطس كلها إلا عدداً قليلاً من المنظمات النافعة ، وعاد تراجان فحرم وجودها ، ثم سمح أورليوس بوجودها ، وما من شك في أنها ظلت قائمة طوال هذه العهود كلها داخل نطاق ائقانون أو خارجه عنه ، ثم أمست في آخر الأمر مسالك دخلت منها المسيحية إلى البلاد وتغلقت في حياة رومة .

الفصل الثامن

النظام الاقتصادي والدولة

تري إلى أي حد حاولت الحكومة في عهد الإمبراطورية أن تسيطر على الحياة الاقتصادية ؟ لقد حاولت أن تعيد ملكية الأرض إلى الفلاحين ، ولكنها عجزت عن ذلك إلى حد كبير . ولقد كان الأباطرة في هذه الناحية أكثر استنارة من مجلس الشيوخ لأن هذا المجلس كان خاضعاً لسيطرة أصحاب الضياع الكبيرة . وأراد دوميثيان أن يشجع زراعة الحبوب في إيطاليا ولكنه لم يفلح فيما كان يرمى إليه ، ولهذا كانت إيطاليا على الدوام تخشى الهلاك جوعاً . وأرغم فسپازيان مجلس الشيوخ على أن يرضى به إمبراطوراً بسيطرته على مصر وكانت وقتئذ مصدر القمح الذي تحتاجه إيطاليا ، وأراد سبتيوس أن يجذو خذوه باستيلائه على شمالي أفريقية . وكان على الدولة أن تضمن استيراد الحبوب إلى إيطاليا وتوزيعها . وقد اضطرها هذا إلى أن تشرف بنفسها على الاستيراد والتوزيع . وكانت تمنح بعض الامتيازات للتجار الذين يستوردون الحبوب إلى إيطاليا وقد ضمن لهم كلوديوس أن يعرضهم مما عساهم أن يتعرضوا له من الخسارة ، وأعني نieron سفنهم من ضريبة الأملاك ، وكان تأخر سفن أسطول الحبوب عن الوصول في موعدها أو تحطمها هو السبب الوحيد الذي يدفع الشعب الروماني إلى شق عصا الطاعة .

وكانت السياسة الاقتصادية الرومانية تسير على مبدأ التخلي *Laissez faire* مع استثناء امتلاك الدولة للمناجم ومقالع الأحجار ، ومصايد السمك ، ورواسب الملح ، ومساحات واسعة من الأراضي المزروعة (٦٨) . وكانت الفيالق الرومانية تصنع الآجر والقرميد اللازمين لبانيها ، وكثيراً ما كانا

يستعملان في المنشآت العامة وخاصة في المستعمرات ، والراجح أن صناعة الأسلحة وعدد الحرب كانت وفقاً على دور الصناعة التي تمتلكها الدولة ، وليس بعيد أنه قد وجدت في القرن الأول مصانع تمتلكها الحكومة كالتى نسمع عنها في القرن الثالث (٦٩) . وكانت الأعمال العامة تعطى في العادة للمقاولين تراقبهم الحكومة مراقبة بلغت من الدقة حداً اضطرتهم إلى القيام بها عادة على الوجه الأكمل ، وبأقل ما يستطيع من الارتشاء والفساد (٧٠) . ثم أصبحت هذه الأعمال حوالى سنة ٨٠ م يقوم بعدد متزايد منها المحررون من عبيد الإمبراطور ، ويعمل فيها عبيد الحكومة ، ويلوح أن الغرض الوحيد من إقامة هذه المشروعات في جميع الأوقات هو تخفيف حدة التعطل (٧١) .

وكانت تفرض على التجارة ضريبة يسيرة مقدارها ١٪ من ثمن المبيعات ، ورسوم جمركية قليلة ، وعوائد في بعض الأحيان على مرور البضائع فوق الجسور واجتيازها المدن . وكان الإيدليون Aediles يراقبون تجارة الأشتات وفق نظام بلغ الغاية في الجودة ، ولكننا إذا جاز لنا أن نصدق ما ورد على لسان شخص حائق في يترونيوس فإنهم لم يكونوا خيراً من أمثالهم من الموظفين في غير ذلك الوقت ؛ « فقد كانوا يقبلون الرشوة من الخبازين وأمثالهم من السفلة ... وأفواه الرأسماليين مفتوحة على الدوام » (٧٢) وكانت الشؤون المالية تتأثر بتدخل الحكومة في قيمة العملة ، وبمنافسة مالية الدولة للمصارف ، ويلوح أن بيت المال كان يضطلع بأكثر الأعمال المصرفية في الإمبراطورية بأجمعها . فكان يقرض المال بالربا للزراع بضمان محصولاتهم ولسكان المدن بضمان أثاث بيوتهم (٧٣) . وكانت الحروب عوناً للتجارة لأنها كانت تفتح لها موارد وأسواقاً جديدة وسيطرة على الطرق التجارية . من ذلك أن حملة جالس Gallus على بلاد العرب فتحت الطريق إلى بلاد الهند وتغلبت على منافسة العرب والبارثيين . وكان بنى

